مجلة المجلات

اللغة العربية

الاستاذ احمد العايد
(الجزائر)

نشرت مجلة «الفكر» الغراء التى تصدر بتونس مقالا للاستاذ احمد العايد تحت عنوان « اللغة العربية » ننشره شاكرين :

لا يزال مشكل اللغة العربية — الفصحى والدارجة واللغة الثالثة — يشغل بال الكثيرين من مثقفينا فى تونس ، وقد تناوله بالبحث عدد من رجال الفكر والادب ورجال التعليم والطلبة ، والقيت فى محاضرات وكلمات وبسطات ونظمت ندوات وسهرات وأسمار ، سواء بدور الثقافة او بالنوادي الادبية او محلات اللجان الثقافية وغيرها فى شتى انحاء الجمهورية ولاسيما منذ الاستقلال الى اليوم .

وان الدوافع التي ركز عليها اغلب من تكلم او كتب فى اللغة العربية من حيث وضعها التاريخي القديم والحديث وامكانياتها ومكانتها واهميتها فى حياة الامم الناطقة بها — ومن بينها تونس — تنقسم الى ثلاثة :

اولا : **ان العربية هي لغة القرآن** ، يحق لنا ان ننكب على درسها ونعتز بها باعتبارنا مسلمين .

ثانيا : **انها عنصر من عناصر ثقافتنا وقوميتنا يحق لنا كذلك ان نبحث عن طرق تنميتها ووسائل احيائها وانعاشها والحاقها بركب اللغات العالمية العصرية المعترف بها والمتعامل بها فى المحافل الدولية .**

ثالثا : انها — اذا صح التعبير — « **مشكل اجتماعي** » بالنظر الى ان المجتمع التونسي مثلا — وكذلك الشأن بالنسبة الى الجزائر او المغرب الاقصى على سبيل المثال — يشتمل على ثلاثة اصناف من المثقفين باللغتين العربية والفرنسية ، وصنف المثقفين باللغة الفرنسية وصنف المثقفين باللغتين العربية والفرنسية ، على ان كل صنف من هذه الاصناف قد يملك مبادىء اللغة الاخرى بالنسبة الى اللغة التي حصلت بها ثقافته ، لكنها مبادىء فى معنى النبذ الطفيفة الخفيفة التي لا تغني ولا تسمن من جوع كما يقال .

ونعود اليوم الى اللغة العربية لنبدي فى شانها بعض الآراء والخواطر ، مساهمة متواضعة منا فى ايجاد الحلول التي نراها صالحة فى العاجل وفى الآجل للمشكل او المشاكل التي تثيرها باعتبارها لغة قديمة ولغة حديثة ولغة عصرية حية تريد أن تجاري اللغات العالمية الاخرى فتصبح اداة التعبير والتاليف فى المجالات الاقتصادية والعلمية والتقنية خاصة فضلا عن المجالات الادبية والفلسفية وميادين العلوم الانسانية الاخرى اطلاقا .

وعندما اقول هذا فكان اللغة العربية ما زالت متاخرة عن ركب اللغات الحضارية العالمية العصرية او كأنها ما زالت عاجزة من اداء رسالتها الثقافية والتعليمية والتاليفية فى اعلى مستوى ، بل قل ان هذا ما قد يتبادر الى ذهن السامع او القارىء لهذه الاسطر من اول وهلة .. **والمشكل فى الحقيقة ليس فيما ذكرت الآن وانما هو فى تزاحم اللغة الفصحى واللغة العامية الدارجة فى مختلف ميادين النشاط او الحياة اليومية** ، سواء فى الاذاعة والتلفزة او المنزل او الشارع او حتى التاليف الادبي كما سنرى .

وان ما نعتزم النظر فيه بهذا الصدد هو ، من ناحية ، وضع الفصحى التاريخي ، قديمه وحديثه ، ثم وضع اللغة الدارجة وامكانياتها ومكانتها في حياتنا اليومية ، ثم النظر في مستقبل العربية وتطورها أو بعبارة اخرى اية لغة نريد ، فصحى مبسطة أو دارجة مهذبة أو لغة ثالثة هي بين الاولى والثانية ؟

1 ــ **الفصحى :** يرى الدارسون ان الفصحى لا يمكن ان نغض عنها الطرف وانه لزام علينا ان نوليها كل اهتمام وعناية والا نترك الدارجة تزاحمها أو تسابقها وذلك في ميدان التاليف خاصة ومختلف ميادين العمل والنشاط لان **الفصحى هي لغة القرآن ولغة القواميس والمناجد ولغة الآثار الادبية قديما وحديثا ،** هي لغة عبد الحميد الكاتب وسهل بن هارون وابن المقفع والجاحظ وأبي حيان التوحيدي وابن شرف وابن رشيق والحصري وابن شهيد وابن خلدون كما هي لغة المسعدي وطه حسين ، هي لغة القصة اليوم والمسرحية والنقد الادبي ولغة الخطابة في المساجد والمناسبات الرسمية ..

ثم لانها **لغة العلوم والفلسفة** وعلم الكلام والعلوم الدينية قديما بالخصوص، ثم هي لغة الصحافة المكتوبة والمذاعة والمتلفزة حديثا ولغة التعليم في المدارس والمعاهد والكليات ولاسيما بالنسبة لحصص اللغة والنحو والادب العربي في كلية الاداب والعلوم الانسانية أو بالنسبة لبعض المواد الاخرى مثل التربية الدينية والمدنية في مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي ، الخ ...

لكن **هل هي لغة العلوم والتقنيات الحديثة وهل هي لغة العصر في ميدان البحوث والاكتشافات العلمية والتقنية العصرية ،** او ــ بعبارة اخرى ــ **هل يمكن للعربية ان تكون اداة تبليغ وتاليف اليوم في مثل هذه الميادين ؟**

ان الجواب على هذا السؤال ، أو ان ما يعترض العربية من مشاكل الاداء والتعبير فيما ذكرت من مجال البحوث والاكتشافات العلمية والتقنية ، يعرفه اولا وبالذات كل من يعمل بمراكز التعريب والترجمة او بالمجامع العلمية خاصة ، فاهل مكة ادرى بشعابها ، ولقائل أن يقول ان هناك حلا ... **وهو الترجمة ،** والراي عندي ان **الترجمة من الحلول الضرورية** لكن غير الكافية لان المسالة ليست في نقل ما يصنفه الغير فحسب والاخذ عن الاقطاب من البحاثة والعلماء ، فلئن بدا هذا ضروريا فهو **لا يحل مشكل اللغة العربية** لجعلها لغة عصرية عالمية تناطح السحاب والنجوم أو قل القمر على سبيل الواقعية ، كما فعلت اللغة الانجليزية بالولايات المتحدة الامريكية اليوم ، فتكلم بها الرواد على سطح القمر ، وفي هذا من الاشارة والرمز ما يكفي تعبيرا عما نريد وتبليغا لما نقصد ..

وفي سياق ما ذكرنا آنفا ، أصبحت اللغة العربية كذلك لغة « يتعامل بها » باليونسكو ، مما يزيد مشكل النهوض بها و « تعصيرها » حدة واهمية .

2 ــ اللغة الدارجة : وضعها وامكانياتها :

ان نظرة الاغلبية الساحقة من المثقفين الى اللغة العامية هي نظرة « احتراز » ان لم نقل نظرة ازدراء وتمنع ، رغما عن كونها لغة التخاطب اليومي في المنزل والشارع والادارة وفي اروقةالمدارس والمعاهد والكليات فهي اذن اللغة السائدة بين الناس دون الفصحى التي ميدانها محصور في مئات المتعلمين والمثقفين ، والسبب في انحصار ميدان الفصحى ذلك، واتساع نطاق العامية في تونس مثلا هو أن الآباء والأجداد لم يدرسوا ــ ــ بكليتهم ــ اللغة العربية الفصحى ولم يتقنوها حتى تصبح بينهم لغة التخاطب ، و « التعامل » اليومي ، وهذا راجع الى ان تعليمها لم يكن منتشرا كما هو راجع بوجه عام الى الوضع التاريخي القديم الذي كانت عليه البلاد في مختلف عهوده واطواره ، ابتداء من العهد القرطاجني الى ما قبل الاستقلال . وقل ذلك بالنسبة الى الكثير من البلدان الناطقة بالعربية ، ما قرب منها أو ما بعد ...

أما فيما يتعلق بوضع **اللغة العامية** وامكانياتها في ميدان التاليف اليوم بتونس فنلاحظ انها **اندرجت منذ زمان في ميدان التاليف ،** من ذلك مثلا المسرحيات الاذاعية أو التلفزية التي فرضها التسلية أو التربية الاخلاقية بدرس مواضيع اجتماعية ، كما اصبحت لغة النشرة الاخبارية الخاصة بعموم الناس أو التعليق باللسان الدارج ، ومن هنا يتسنى لنا القول ان اللغة الدارجة قد اخذت مكانها بعدد كبير من برامج الاذاعة والتلفزة ، فرضت نفسها فرضا بحكم الواقع اي الوضع الحالي للمجتمع التونسي الذي ما زال في حاجة الى الدارجة ليكون مطلعا على ما يجري في البلاد والعالم من احداث واخبار ، الخ ...

ثم ان اللغة العامية قد اكتسحت من ناحية اخرى ميدان التاليف الأدبي وخاصة القصة ، ونذكر في هذا الشان على سبيل المثال محاولات الاديبين محمد العروسي المطوي والبشير خريف وغيرهما ممن اقحم

اللغة الدارجة الى جانب الفصحى فخللها بها باعتبار ان اللغة العامية قادرة احيانا على اداء المعنى المطلوب باكثر واقعية وحيوية من الفصحى .

واذا نظرنا فى مستقبل اللغة الدارجة وخاصة فى المجال الذي تستعمل فيه اليوم نرى ان نشر التعليم سيكون له مفعوله ــ اكثر فاكثر ــ فى تهذيب هــذه اللغة وصقلها ويجدر ان نلاحظ فى هذا المجال ان اللغة الدارجة التي اصبحنا نتكلم بها اليوم ليست نفس اللغة التي يتكلم بها آباؤنا واجدادنا منذ ثلاثين سنة ، وانها قد نمت وتهذبت ولاسيما بعد الاستقلال اي فى بحر الخمسة عشر عاما الاخيرة ، والسبب فى ذلك راجع ــ كما قلنا ــ من ناحية الى نشر التعليم ومن ناحية اخرى الى تاثير خطب الرئيس وخطب المسؤولين وتاثيرها فى الناس وطبع لغتهم بطابعها ومن جهة ثالثة الى تاثير الحصص الاذاعية ثم التلفزية التي تعددت وتنوعت .

ومن شان كل هذه العوامل ان تتفاعل وتساعد على تهذيب اللغة الدارجة وتقربها من الفصحى شيئا فشيئا على مر السنين .

اللغة الثالثة : ومما لا يجب اهماله ان ما نسميه او ما سماه بعضهم باللغة الثالثة كانت هي ايضا **محاولة جربت فى ميدان التاليف الادبي** وخاصة منه المسرحي وقد ظهرت هذه البادرة فى مسرحيات توفيق الحكيم ومحمود تيمور ، وحقيقة هذه **اللغة انها بين الفصحى والعامية** ، لها علاقة بالفصحى من حيث مراعاتها لقواعد النحو والصرف والرسم المتعارفة ، ولها صلة بالعامية من حيث بساطة الفاظها وتراكيبها وحتى النطق بها بالوقوف على السكون مثلا وهي محاولة طريفة يمكن تعميمها لحل مشكل الفصحى والعامية اي انتهاج التاليف والتعبير بلغة سلسة طيعة يفهمها الخاص والعام ، لكن انتشار مثل هذه اللغة الثالثة متوقف الى حد كبير على انتشار التعليم واكتساحه كل اصناف المجتمع ، الشان فى هذا المجال شان الفصحى او يكاد ...

3 ــ كيف ننهض باللغة العربية ؟

ليس الحل فى الترجمة فحسب اذ هي كما راينا ضرورية لكن غير كافية ، وانما **الحل فى تكوين اطارات كافية من حيث العدد والقيمة** اي كما وكيفا كما يقال ، اطارات فى اعلى مستوى قادرة على الخلق والابتكار والتاليف فى ميدان العلوم والتقنيات خاصة ، اي **تكوين بحاثة وعلماء قادرين على مجاراة البحاثة** والعلماء الامريكان والاوربيين فى ميدان البحث والاكتشاف والاختراع بالمخابر العلمية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى **يشترط فى هؤلاء البحاثة والعلماء ان يتضلعوا فى العربية ليعبروا بها عن آرائهم ويصنفوا بها الكتب والمقالات . الحل اذن ينحصر فى تكوين العقول والادمغة لا فى الترجمة فحسب .**

فاذا ظهروا الى الوجود ــ والمسالة مسالة زمن ــ **اصبحوا قادرين على فرض لغة عربية علمية عصرية ، فتقتحم هذه اللغة المحافل العلمية والسياسية الدولية** تقديرا للناطقين بها من اجل علومهم ومساهمتهم فى تحقيق التطور البشري والتقدم الحضاري على صعيد عالمي . هذا هو الحل فى الآجل ، لان الحياة على مراحل والتطور كذلك .

اما الحل فى العاجل فهو ما بادرت اليه تونس **وهو استعمال اللغة الفرنسية الى جانب اللغة العربية،** على ان هذا الحل قد يطول أمده ، ولا ضير فى استعمال اللغتين العربية والفرنسية ، بل حتى اكثر من لغتين فى عالمناليوم ، عالم الحضارة والعلوم والتقنيات والاكتشافات المتعددة المتعاقبة ، علم غزو القمر والتحليق فى الفضاء ، نريد فيه ان نلتحق بالامم المتقدمة التي سبقتنا اشواطا واشواطا فى ميدان البحث العلمي والاختراع والاكتشافات التقنية .

وهكذا **فان اللغة التي يمكن ان تصبح اداة التاليف العلمي والتدريس بالمعاهد والكليات هي اللغة الثالثة** التي تعرضنا لها آنفا بشرط ان يخلقها ويفرضها ــ بالتاليف فيها قبل كل شيء ــ جمع البحاثين والعلماء الذين ننتظرهم سواء فى ميدان الرياضيات او العلوم الفيزيائية او علوم الذرة وغزو الفضاء ، او الطب فى المخابر بالخصوص .

واذا ما وصلنا الى هذا الطور ، الذي تصبح فيه اللغة العربية ــ اللغة الفصحى المبسطة ــ لغة التدريس والتاليف بمختلف مراحل التعليم ، فلا بد من الحفاظ على اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية او الالمانية وغيرها من اللغات العالمية الحية بمدارسنا حتى يبقى التفاعل او التبادل او التلاقح حاصلا بين الحضارات والثقافات فنكون هكذا قد حققنا ما نصبو اليه من تدعيم ثقافتنا على اسس قومية واصيلة من ناحية ، وتفتح من ناحية اخرى على العالم الخارجي .

ولئن كان من السهل اليوم أن ندرس اللغات والعلوم الانسانية او عددا منها على الاقل باللغة

العربية ، فان كثيرا من المشاكل ما زالت قائمة فى وجه هذه اللغة : ومنها **صعوبة تعريب العلوم والفنون** التقنية كلها فى الآجل ، **وقلة الاطارات الكفأة والكافية** فى ميدان التدريس العالي باللغة العربية ، وكذلك ادبار الشبان من الطلبة والطالبات عن العربية كما دلت على ذلك التجربة الاخيرة الرامية الى اقحام ساعة عربية فى مختلف شعب التدريس الجامعي، الخ..

وان دل هذا النفور منهم على شيء فهو يدل على نوع من المركبات ، مركب الشعور بالنقص ، المتمثل فى الازدراء والاستعلاء تجاه هذه اللغة .

اما فيما يتعلق باللغة الدارجة ونصيبها من الاستعمال فقد ينحصر — على الصعيد الداخلي — فى الميادين التي تسربت اليها اليوم ، سواء بالاذاعة والتلفزة او ميادين التاليف المسرحي لبعض الروايات المسلية او ذات النزعة التربوية الاخلاقية والاجتماعية لعرضها بالاذاعة او التلفزة فضلا عن ميدان التخاطب بالمنزل والشارع والادارة .

على انه من العسير ان نتصور اللغة الدارجة هي اللغة الرسمية المثلى التي قد تصبح لغة التاليف والتدريس أو نشر العلم والثقافة فى اي بلد من اقطار المغرب او المشرق وهذا راجع — اذا وضعنا المشكل على الصعيد الأممي بين هذه الاقطار — الى ان لكل بلد من هذه البلدان لغته الدارجة ولهجته ومصطلحاته الخاصة : فكلمة « شنطة » المصرية مثلا لا افهمها وافهم مكانها لفظة « فليجة » رغم ان هذه اللفظة اعجمية غير عربية لكنها تستعمل فى الدارجة التونسية. وقل مثل ذلك بالنسبة الى الكثير من الكلمات ذات الاصل التركي او الفرنسي التي تزخر بها اللهجات العامية فى مختلف الاقطار العربية والتي تستعمل فى بلد دون الآخر ، مما يجعل وسيلة التفاهم والتخاطب صعبة معقدة .

فالحل اذن هو لفائدة لغة عربية فصحى مبسطة تفرض نفسها مع الزمن بفضل عدة عوامل .

ومن هذه العوامل بالنسبة الى بلادنا ، **انتشار التعليم وعناية الحكومة بتطوير اللغة العربية وتنميتها فى نطاق التدريس والتاليف من الحفاظ على اللغات الأجنبية** وخاصة الفرنسية باعتبارها اللغة العلمية المناسبة القريبة من الاغلبية الساحقة من التونسيين ضمانا لابقاء التفتح على الثقافات والحضارات الأجنبية والتفاعل مع العالم الخارجي وتحاشي الانكماش والانغلاق على النفس .

وخلاصة القول فقضية اللغة العربية هي قضية تطور زمني ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بانتشار التعليم الى أن يكتسح كافة أبناء الشعب التونسي بنسبة قريبة من النسبة المثلى اي ما يقرب من مائة بالمائة ، كما هو الشأن فى البلدان المتقدمة التي مرت على استقلالها عقود من السنين ، وهي **قضية تكوين اطارات عالية** كفأة مقتدرة على البحث والاختراع والتاليف وبالتالي على فرض لغة مجددة مبسطة منفتحة لها قواعد الفصحى مع تراكيب والفاظ واصطلاحات قريبة من الاذهان ، يفهمها الخاص والعام . كما هي قضية عناية من طرف المسؤولين بتطويرها ونشرها كما هو الشان بتونس ، وعلى صعيد أممي ، من طرف المسؤولين بمختلف الاقطار الناطقة بها .

فعسى بذلك أن تصبح الى جانب اللغة الفرنسية أو الانجليزية أو الالمانية أو الاسبانية لغة « التعامل » فى المحافل الدولية السياسية والمنظمات الثقافية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية العالمية .